الفصل التاسع

المصلح السويسري

عند اختيار الوسائل لاجل اصلاح الكنيسة تشاهد الخطة الالهية نفسها التي استخدمت في غرس الكنيسة. لقد عبَر المعلم الالهي تاركا اشراف الأرض وعظماءها وأثرياءها الذين اعتادوا الحصول على المديح والولاء كقادة للشعب. كانوا من ذوي الافتخار والثقة المفرطة بمكانتهم المتباهية بحيث لم يستطيعوا التكيف والتعاطف مع بني جنسهم، ولا المساهمة في العمل الخلاصي الذي قام به الناصري الوديع. ووجهت الدعوة إلى صيادي الجليل الكادحين الاميين : « هلم ورائي فاجعلكما صيادي الناس » (متى ٤: ١٩). كان هؤلاء التلاميذ وضعاء وقابلين للتعلُّم. وبقدر ما قلَّ تأثرهم بالتعاليم الكاذبة التي كانت متفشية في أيامهم بقدر ما استطاع المسيح أن يعلمهم تعليما ناجحا ويدربهم على خدمته. كذلك كانت الحال في أيام الاصلاح العظيم. فالمصلحون الذين أخذوا مركز القيادة كانوا رجالا يحيون حياة الفقر ــ رجالا كانوا أكثر الناس تحررا من كبرياء الحسب والنسب والمركز ومن التعصب والاحتيال. ان خطة الله هي أن يستخدم الوسائل الوضيعة في تحقيق النتائج العظيمة. وحينئذ لن يعود المجد للناس بل لذاك الذي يعمل فيهم أن يريدوا وأن يعملوا من أجل مسرته.

بعد ولادة لوثر بأسابيع قليلة في كوخ أحد عمال المناجم في سكسونيا، ولد اولريك زوينجلي بين جبال الألب في كوخ راعي للمواشي، أما البيئة التي

عاش فيها زوينجلي في طفولته والتعليم الذي تلقاه في صباه فكان من شأنهما اعداده لخدمته العتيدة. فإذ نشأ بين مناظر الجلال الطبيعي والجمال والروعة العظيمة تأثر عقله منذ بكور حياته بالشعور بعظمة الخالق وقدرته وجلاله. هذا، وان تاريخ اعمال البطولة التي تتالت على الجبال في وطنه اضرم في نفسه آمال الشباب. واذ كان يجلس الى جوار جدته التقية كان يصغي الى القصص الكتابية القليلة التي كانت قد انتقتها من بين اساطير الكنيسة وتقاليدها. وباهتمام وشوق كان يصغي الى قصص الاعمال الجليلة التي قام بها الآباء والانبياء والرعاة الذين كانوا يحرسون قطعانهم على تلال فلسطين حيث تحدث الملائكة معهم، وعن طفل بيت لحم ورجل جلجثة.

وكما كان جون لوثر يرغب في تعليم ابنه كذلك كان ابو اولريك. فارسل ذلك الصبي من وطنه مبكرا، ونما عقله بسرعة حتى لقد ظهرت مشكلة العثور على المعلمين الاكفاء ليعلموه. وفي الثالثة عشرة من العمر ذهب إلى برن التي كانت تضم حينئذ اشهر مدرسة في سويسرا. ومع ذلك فقد ظهر خطر كان يهدد بالقضاء على مستقبله. فقد بذل الرهبان جهودا جبارة لاغوائه على دخول الدير. لقد كان الرهبان الدومنيكان والفرنسيسكان يتنافسون للظفر برضا الشعب واستحسانه بالزينات الفخمة التي كانوا يجمّلون بها كنائسهم، والمظاهر الخلابة التي كانوا يحيطون بها طقوسهم، وجواذب الذخائر الشهيرة والايقونات العجائبية.

رأى رهبان الدومينيكان في برن انهم لو استطاعوا ان يكسبوا هذا الطالب الشاب الموهوب لحصلوا على الربح والكرامة. ان شبابه الرائع كفيل باجتذاب الشعب الى خدماتهم وازدياد ايراد رهبانيتهم أكثر مما تجتذبه الابهة والتباهي. وحاولوا بكل ما وسعتهم الحيلة من الخداع والمداهنة ان يغروا زوينجلي بدخول ديرهم. ان لوثر عندما كان طالبا في المدرسة دفن نفسه في حجرة بأحد الاديرة، وكان ممكنا ألا يعرف العالم عنه شيئا لو لم تحرره عناية الله. أما زوينجلي فلم يكن له أن يواجه هذا الخطر. فقد دبرت العناية ان يعلم ابوه بمكائد اولئك

الرهبان. ولم يكن يريد أن يعيش ابنه حياة عاطلة عديمة النفع كالرهبان. ورأى أن نفع ابنه مستقبلا مستهدف للخطر، فأمره بالعودة إلى وطنه بلا إبطاء.

زوينجلي يكتشف الحق

امتثل الابن لامر ابيه. لكنّ ذلك الشاب لم يكن ليقنع بالبقاء في وطنه. فجعل يواصل دراسته، وبعد ذلك ذهب الى بازل. وفي هذه المدينة سمع زوينجلي انجيل نعمة الله المجانية لاول مرة. ذلك أن ويتمباك، استاذ اللغات القديمة، قادته دراسته اللغتين اليونانية والعبرية الى الكتاب المقدس، وهكذا اشرقت اشعة النور الالهي على عقول الطلبة الذين كان يعلمهم. وقد أعلن أنه يوجد حق أقدم وأثمن بما لا يقاس من النظريات التي يعلمها الاساتذة والفلاسفة. وهذا الحق القديم هو أن موت المسيح هو الفدية الوحيدة المقدمة عن الانسان الخاطئ. وكان هذا التصريح بالنسبة الى زوينجلي اول شعاع يبشر بقدوم الفجر.

وسرعان ما دُعي زوينجلي الى ترك بازل ليبدأ عمل حياته. وكان الحقل الاول لخدمته ابرشية في جبال الألب غير بعيدة من مسقط رأسه. وعندما سيم كاهنا « كرس نفسه بجملتها للبحث عن الحق الالهي اذ كان يعلم جيدا »، كما يقول عنه مصلح آخر من شركائه، « كثرة ما يجب أن يتعلمه ذاك الذي يستودعه المسيح قطيعه » (١١٧). وبقدر ما كان يفتش الكتب بقدر ما بدا له الفرق واضحا بين حقائقها وهرطقات روما. فخضع للكتاب المقدس بصفته كلمة الله التي هي القانون الوحيد المعصوم الكافي. وقد رأى أن الكتاب ينبغي أن يفسر نفسه. ولم يجرؤ على أن يشرح الكتاب بحيث يدعم نظرية أو عقيدة سبق له تصورها، بل اعتبر أن واجبه يقتضيه أن يتقصى ما هو تعليم الكتاب المباشر الصريح. وقد حاول الانتفاع بكل معونة لادراك معنى كلمة

الله ادراكا صحيحا وكاملا، وكان يتوسل إلى الله في طلب معونة روحه القدوس الذي يعلنه لكل من يطلبونه باخلاص في الصلاة.

وقال زوينجلي : « ان الكتب المقدسة آتية من الله لا من انسان. والله الذي ينير العقول والقلوب سيعطيك أن تفهم أن الكلام آتٍ من الله. ان كلمة الله... لا يمكن ان تخيب، فهي لامعة ومنيرة، وهي تعلِّم نفسها وتكشف عن ذاتها وتنير النفس بكل الخلاص والنعمة، وتعزيها بالله، وتجعلها تتضع بحيث تفقد نفسها أو حتى تخسرها لتعانق الله » (١١٨). وقد برهن زوينجلي نفسه على صدق هذا الكلام. واذ كان يتكلم عن اختباره في هذا الوقت كتب بعد ذلك يقول : « عندما... بدأت أخضع نفسي بالتمام للكتاب المقدس كانت الفسلفة واللاهوت التعليمي يقترحان عليَّ دائماً المجادلات، أخيراً وصلت الى هذا اذ فكرت قائلا : " يبتغي لك أن تترك كل ذلك الكذب وتتعلم المعنى الذي يقصده الله من كلمته البسيطة ". وحينئذ بدأت أسأل الله أن يمنحني النور فبدا من السهل عليَّ فهم كلامه » (١١٩).

يكرز بتعليم المسيح

ان التعليم الذي كرز به زوينجلي لم يتسلمه من لوثر، لكنه كان تعليم المسيح. لقد قال ذلك المصلح السويسري : « إنْ كان لوثر يكرز بالمسيح فهو انما يفعل ما افعله انا. إنَّ مَن قد أتى بهم الى المسيح هم أكثر ممن قد ارشدتهم انا اليه. ولكن هذا لا يهم. فانا لن احمل اسم شخص آخر غير اسم المسيح الذي انا جنديه والذي هو وحده قائدي. اني لم ارسل الى لوثر بكلمة واحدة ولا هو ارسل اليَّ. ولماذا؟... حتى يتبرهن الى اي حد يتوافق روح الله مع نفسه اذ اننا كلينا نعلِّم تعليم المسيح من دون تواطؤ على نحو واحد متماثل » (١٢٠).

وفي عام ١٥١٦ دعي زوينجلي ليصير واعظا في دير اينسيدلن. هنا قُيِّض له ان يرى فساد روما عن قرب، وكان عليه ان يبذل كمصلح نفوذا يحس به الناس بعيدا من وطنه في الألب. وكان بين الجواذب التي في اينسيدلن تمثال للعذراء قيل ان له قدرة على عمل المعجزات. وفوق مدخل الدير نقشت هذه العبارة: « هنا يمكن الحصول على غفران كامل للخطايا ». (١٢١). وكان الحجاج يقصدون مزار العذراء هذا في كل الفصول. ولكن في عيد تكريسه السنوي العظيم كان يتقاطر الى هناك جماهير غفيرة من كل أنحاء سويسرا بل ومن فرنسا والمانيا. وأثار ذلك زوينجلي فانتهز الفرصة ليعلن الحرية بواسطة الإنجيل لعبيد الخرافات هؤلاء.

فقال للناس : « لا تتصوروا ان الله هو في هذا الهيكل اكثر مما هو في اي مكان آخر في الخليقة، فالله محيط بكم انّى توجدون وهو يسمعكم... هل يسع الاعمال غير النافعة أو الحج الطويل أو النذور أو الصور والتماثيل أو التوسل إلى العذراء أو القديسين أن تضمن لكم الحصول على نعمة الله؟... ما جدوى الكلام الكثير الذي تتكون منه دعواتنا ؟ وايُّ فاعلية في القلنسوة المصقولة أو الرأس الحليق أو الحلل الطويلة الهفهافة أو المطرزة؟... ان الله ينظر الى القلب، لكنّ قلوبنا منصرفة عنه ». ثم قال: « ان المسيح الذي اسلم مرة على الصليب هو القربان او الذبيحة التي قدمت تكفيرا عن المؤمنين الى الابد » (١٢٢).

لكنّ كثيرين من السامعين لم يرضوا بهذا الكلام أو يقبلوه، بل احسوا بالخيبة المرة عندما قيل لهم ان سفرهم الشاق كان عبثا. ولم يكونوا يفهمون شيئا عن الغفران المجاني المعطى لهم بواسطة المسيح. كانوا قانعين بالطريق القديم الذي كانوا يعتقدون انه يوصلهم الى السماء كما قد رسمته لهم روما. وقد امتنعوا عن ايقاع انفسهم في الارتباك الناشئ عن محاولة البحث عن شيْء افضل. كان اسهل عليهم ان يستندوا في امر خلاصهم الى الكهنة والبابا من ان يسعوا نحو طهارة القلب.

لكنّ فريقا آخر قبلوا اخبار الفداء بالمسيح بفرح. فالممارسات والطقوس التي فرضتها روما لم تستطع ان تمنحهم سلام النفس، فقبلوا بالايمان دم المخلص كفارة عنهم. وعاد هؤلاء الحجاج الى وطنهم ليعلنوا للآخرين النور الثمين الذي حصلوا عليه. وهكذا انتقل الحق من قرية الى اخرى ومن مدينة الى اخرى، فنقص عدد من كانوا يحجون الى هيكل العذراء نقصا كبيرا، ونقصت تبعا لذلك قيمة النذور، كما نقص كذلك المرتب الذي كان زوينجلي يتقاضاه منهم. لكنّ هذا سبب له فرحا عندما رأى ان قوة التعصب والخرافات هي في طريقها الى الاضمحلال.

لم تكن سلطات الكنيسة غافلة عن العمل الذي كان زوينجلي يعمله، ولكنهم رفضوا التدخل في ذلك الحين. فلانهم كانوا يرغبون في ان يكسبوه الى جانبهم حاولوا استمالته اليهم بالتملقات، وفي اثناء ذلك كان الحق يسيطر على قلوب الشعب.

يعظ في كاتدرائية زيوريخ

هذا وان خدمات زوينجلي في اينسيدلن اعدته لان يعمل في حقل أوسع. وكان مقدَّرا له ان يدخل هذا الحقل سريعا. فبعدما خدم مدة ثلاث سنين دعي الى وظيفة واعظ في كاتدرائية زيوريخ. وكانت هذه المدينة حينذاك أهم مدن الاتحاد السويسري. فالتأثير الذي يحدث فيها سيمتد الى بعيد. ومع ذلك فان رجال الاكليروس الذين دعوه كانوا يرغبون في منع كل البدع، وتبعا لذلك أملوا عليه تعليماتهم والواجبات المفروضة عليه.

قالوا له : « عليك ان تبذل كل جهد في جمع الايرادات للكنيسة ولا تغفل أقل شيء. وينبغي لك أن توصي الجميع من على المنبر وفي كرسي الاعتراف بأن يدفعوا كل العشور والالتزامات الواجبة الاداء حتى يبرهنوا بتقدماتهم على مقدار حبهم للكنيسة. وعليك ان تزيد الدخل الذي يجمع من المرضى والقداسات

وكل الفرائض الكهنوتية » . ثم عاد معلموه يقولون له : « أما في ما يختص بتقديم الاسرار المقدسة والوعظ والواجبات الرعوية فتستطيع أن تعيِّن كاهنا آخر غيرك ليقوم بها، وخصوصا الوعظ. وعليك الا تقدم الاسرار المقدسة الا للناس المشهورين ذوي الوجاهة، وبناء على طلبهم فقط، لا لجميع الناس من دون تمييز » (١٢٣).

المسيح محور عظاته

كان زوينجلي يصغي الى كل هذه التوصيات وهو صامت. ثم بعدما عبَّر لهم عن شكره لاجل شرف دعوتهم اياه لهذه الوظيفة المهمة عمد الى توضيح الطريق الذي قصد ان يسير فيه، فقال : « لقد ظلت حياة المسيح محجوبة عن الشعب امداً طويلاً، لذلك فأنا سأعظ مما ورد في انجيل متى كله... مستقيا التعاليم من ينابيع الكلمة الالهية فأسبر اغوارها مقارنا بين فصل وآخر وباحثا عن المعرفة والفهم بالصلاة المستمرة الحارة. اني سأكرس كل خدمتي لتمجيد الله وتعظيم ابنه الوحيد وخلاص النفوس وبنيانها في الايمان الحقيقي » (١٢٤). ومع أن بعض رجال الاكليروس لم يصادقوا على خطته وحاولوا ان يثنوه عنها فقد ظل زوينجلي ثابتا. واعلن انه لن يعتمد طريقة جديدة بل سيتبع الطريقة القديمة التي كانت تمارسها الكنيسة في العصور الاولى الاكثر نقاوة وطهارة.

واستيقظ اهتمام الناس بالحقائق التي علَّم بها، وتقاطروا افواجا لكي يستمعوا اليه. وكثيرون ممن كانوا قد انقطعوا عن حضور الخدمة عادوا ليسمعوه. وقد بدأ خدمته بفتح الاناجيل وقراءتها وشرحها لسامعيه، مفسرا للشعب كلمة الوحي الالهي عن حياة المسيح وتعاليمه وموته. وفي زيوريخ كما في اينسيدلن أعلن للشعب كلمة الله كالمرجع الوحيد المعصوم، وموت المسيح كالذبيحة الوحيدة الكاملة. قال : « اني اريد ان ارشدكم الى المسيح، المسيح الحقيقي نبع الخلاص الحقيقي » (١٢٥). وقد تجمهر الشعب من كل الطبقات حول

ذلك الواعظ، من رجال السياسة والعلم، والصناع والتلاميذ والفلاحين. وكانوا يصغون الى كلامه باهتمام عظيم. ولم يكتف باعلان هبة الخلاص المجاني بل بكل شجاعة وبخ الشرور والمفاسد التي كانت متفشية في ذلك العصر. وقد عاد كثيرون من الكاتدرائية مسبحين الله قائلين : « ان هذا الرجل يعظ بكلمة الحق. انه سيكون كموسى فيخرجنا من ظلمة مصر الداجية هذه » (١٢٦).

ولكن مع ان الناس قبلوا كلامه في بادئ الامر قبولا حسنا وبحماسة شديدة فقد بدأت المقاومات بعد ذلك، إذ انبرى الرهبان لتعطيل عمله وشجب تعاليمه. وهاجمه كثيرون بالسخرية والتهكم، وآخرون لجأوا الى الوقاحة والتهديد. لكنّ زوينجلي تحمل كل ذلك بصبر اذ قال : « اذا اردنا ان نربح الاشرار الى يسوع المسيح فعلينا ان نغمض عيوننا ونغضي عن أشياء كثيرة» (١٢٧).

في هذه الاثناء دخل عامل جديد لانجاح عمل الاصلاح. ذلك ان رجلا يدعي لوسيان ارسل الى زيوريخ حاملا بعض مؤلفات لوثر من قبل احد اصدقاء الايمان المصلح من مدينة بازل، اذ كان يرى ان بيع هذه الكتب سيكون وسيلة قوية لنشر النور. هذا الرجل كتب الى زوينجلي يقول: «عليك ان تتحقق مما إذا كان حامل هذه الكتب ذا فطنة كافية ومهارة. فان كان كذلك دعه يحمل هذه الكتب من مدينة الى مدينة ومن قرية الى قرية ومن بيت الي بيت اذا لزم، واضعا مؤلفات لوثر هذه بين يدي شعب سويسرا، وعلى الخصوص شرحه للصلاة الربانية المكتوبة للشعب. فبقدر ما تفهم هذه الكتب يزداد اقبال الناس على شرائها » (١٢٨). وهكذا دخل النور الى تلك البلاد.

ولكن فيما يبدأ الله بتحطيم قيود الجهالة والخرافات يعمل الشيطان جاهدا باعظم قوة ليلف الناس في أكفان الظلام وليزيد من متانة تلك القيود. فاذ نهض رجال في كثير من الاقطار ليقدموا الى الشعب الغفران والنور بدم المسيح بدأت روما بنشاط جديد في فتح أسواقها في كل العالم المسيحي بائعة الغفران بالمال.

كان لكل خطيئة ثمنها؛ وقد سُمح للناس بإرتكاب الجرائم اذا كان هذا الترخيص المجاني يملأ خزانة الكنيسة بالمال. وهكذا تقدمت تانك الحركتان : احداهما تقدم غفرانا للخطايا في مقابل دفع المال، والاخرى تقدمه بالمسيح. فروما تبيح إرتكاب الخطيئة وتجعل ذلك مصدر إيراداتها، بينما المصلحون يدينون الخطيئة ويوجهون أنظار الناس وقلوبهم الى المسيح كالكفارة وصانع الخلاص.

بيع الغفرانات في سويسرا

وقد اسند بيع الغفرانات في المانيا الى الرهبان الدومنيكان برئاسة تتزل الممقوت القبيح السيرة. اما في سويسرا فقد كلف به الرهبان الفرنسيسكان تحت رئاسة راهب إيطالي يدعى شمشون فاسدى خدمة عظيمة الى الكنيسة بجمعه اموال طائلة من المانيا وسويسرا ليملأ بها خزانة البابا. اما الان فقد بدأ يجوب انحاء سويسرا فاجتمعت حوله جموع كثيرة. وكان يسلب ارباح الفلاحين القليلة ويفرض على الاثرياء اموالا طائلة. لكنّ آثار الاصلاح ظهرت في كساد تلك التجارة الآثمة من دون ان توقفها تماما. كان زوينجلي لا يزال في انيسيدلن عندما عرض شمشون بعد دخوله سويسرا بضاعته في مدينة قريبة. فلما عرف المصلح غرضه من المجيء هبَّ لمقاومته. لم يتقابل الخصمان، ولكنّ نجاح زوينجلي في فضح ادعاءات ذلك الراهب كان عظيما حتى لقد اضطر الراهب الى الانسحاب الى جهات اخرى.

وفي زيوريخ وعظ زوينجلي ضد المتاجرة بالغفرانات. وعندما اقترب شمشون من هذه المدينة ارسل اليه المجلس رسولاً يحذره من دخولها واذ استطاع الدخول بالحيلة أبعد من دون ان يبيع صكا واحدا من صكوك الغفران، وبعد قليل رحل عن سويسرا.

وقد اكتسب الاصلاح قوة دافعة محركة عظيمة بظهور الطاعون أو «الموت الوبيل» الذي اجتاح سويسرا في عام ١٥١٩. فاذ وقف الناس امام ذلك

المهلك وجها لوجه بدأوا يحسون بأن الغفرانات التي كانوا قد ابتاعوها منذ عهد قريب هي باطلة ولا قيمة لها. فكانوا يتوقون الى أساس أشد رسوخا لايمانهم. واذ كان زوينجلي في زيوريخ اصابه الوباء وكانت وطأة المرض شديدة عليه جدا بحيث انتزع كل أمل في شفائه وانتشرت اشاعة تقول انه قد مات. لكن رجاءه وشجاعته لم يتزعزعا في ساعة التجربة. فلقد نظر بايمان الى صليب جلجثة مستندا الى الكفارة الكافية الكاملة عن الخطية. فلما عاد من ابواب الموت بدأ يكرز بالانجيل بغيرة اعظم مما فعل قبلا. وكان لكلامه قوة غير معتادة. فرحب الشعب براعيهم المحبوب بفرح عظيم اذ عاد اليهم بعدما وصل الى حافة القبر. وكانوا هم قد عادوا من زيارة المرضى والمحتضرين وهم يحسون بقيمة الانجيل العظيمة اكثر من قبل.

وصل زوينجلي الى فهم أوضح لتعاليم الكتاب وحقائقه، واختبر قوته المجدِّدة بيقين اعظم وأكمل. وكان موضوع كلامه ووعظه سقوط الانسان وتدبير الفداء. فقال : « لقد متنا كلنا في آدم وانحدرنا الى اعماق الفساد والدينونة » (١٢٩). « وقد اشترى لنا المسيح فداء ابديا... وآلامه هي... ذبيحة أبدية دائمة وفعالة اذ انها تكفل لنا الخلاص والشفاء. وهي كافية لارضاء العدل الالهي الى الابد لمصلحة من يعتمدون عليها بايمان ثابت راسخ ». ومع ذلك فقد علَّم الناس بوضوح انهم ليسوا احرارا ليبقوا في الخطية استنادا الى نعمة المسيح فقال : «اينما يوجد ايمان بالله فهناك يوجد الله. واينما يسكن الله فهناك توجد غيرة تلح على الناس وتحثهم على الاعمال الصالحة » (١٣٠).

الكاتدرائية تغص بالجماهير

كان اهتمام الشعب بسماع زوينجلي عظيما بحيث ضاقت الكاتدرائية على سعتها بجماهير الناس الذين أتوا ليسمعوه. وقد كشف لسامعيه عن الحق قليلا قليلا على قدر ما كانوا يحتملون. اذ حرص على ألا يقدم اليهم منذ البدء الامور المفزعة لهم والتي تخلق التعصب. فقد كان عمله ان يربح

قلوبهم لتعاليم المسيح حتى تلين بمحبته، واضعا أمامهم مثال السيد؛ واذ يقبلون مبادئ الانجيل تزول وتتلاشى كل معتقداتهم واعمالهم الخرافية.

تقدم الاصلاح في زيوريخ خطوة فخطوة، ولذلك فزع الاعداء ونهضوا يقاومونه. قبل ذلك بعام واحد رفض راهب وتنبرج أوامر البابا والامبراطور في مدينة ورمس، والآن ها كل شيء في زيوريخ يدل على ثبات مماثل ضد مطالب البابا. وقد هوجم زوينجلي مرارا. وفي المقاطعات البابوية كان يؤتى من حين الى آخر بتلاميذ الانجيل الى آلات الاعدام، لكنّ هذا لم يكن كافيا بل كان ينبغي اسكات صوت معلم الهرطقة. ولذلك ارسل اسقف كونستانس ثلاثة نواب الى مجلس زيوريخ، وهؤلاء اشتكوا على زوينجلي بانه يشجع على تعدي اوامر الكنيسة، وهذا يعرض سلام المجمع ونظامه للخطر. وقال الاسقف في بيانه : لو ألغي سلطان الكنيسة فلا بد ان تعم الفوضى. وقد أجاب زوينجلي قائلا انه منذ أربع سنين يعلم بالانجيل في زيوريخ، هذه المدينة « التي هي في أكمل هدوء وسلام بين كل مدن الاتحاد». ثم قال: « أفليست المسيحية اذاً هي أعظم حارس للامن العام ؟ » (١٣١).

أوصى المبعوثون أعضاء المجلس بان يظلوا في داخل الكنيسة التي لا خلاص لمن هو خارج عنها كما زعموا. فأجاب زوينجلي المجلس قائلا: « لا تجعلوا هذه التهمة تثيركم. ان أساس الكنيسة هو الصخرة نفسها والمسيح نفسه الذي أعطى سمعان اسم بطرس لانه قد اعترف به بكل أمانة. ففي كل أمة كل من يؤمن من كل قلبه بالرب يسوع مقبول لدى اللّه. هنا حقا توجد الكنيسة، وخارجا عنها لا خلاص لاي انسان » (١٣٢). وكان من نتائج ذلك المؤتمر ان أحد مبعوثي الاسقف قبل الايمان المصلح.

رفض المجلس اتخاذ أي اجراء ضد زوينجلي، فتأهبت روما للقيام بهجوم جديد. فاذ أبلغ المصلح بالمؤامرات التي يدبرها له اعداؤه صاح قائلا : «ليأتوا،

فأنا لا أخافهم أكثر مما تخاف الصخرة القوية أمواج البحر التي تهدر تحتها » (١٣٣). وقد نتج من مساعي الاكليروس تقدم الدعوة التي حاولوا القضاء عليها، وظل الحق ينتشر. وفي المانيا تشجع من جديد معتنقو مبادئ الاصلاح، الذين كانت عزائمهم خائرة بسبب اختفاء لوثر، عندما رأوا تقدم الانجيل في سويسرا.

وعندما توطد الاصلاح في زيوريخ ظهرت ثماره في وفرتها وكمالها في قمع الرذيلة وازدهار النظام والانسجام. وقد كتب زوينجلي يقول : « لقد سكن السلام والانسجام مدينتنا. فلا توجد بيننا مشاجرات ولا رياء ولا حسد ولا منازعات. فمن أين يمكن أن يجيء مثل هذا الاتحاد والوفاق ان لم يكن من الرب ومن تعاليمه التي تملأنا من ثمار السلام والتقوى ؟ » (١٣٤).

أثارت انتصارات الاصلاح حفيظة البابويين فبذلوا أقصى جهودهم الجبارة للقضاء عليه. فاذ رأوا أنهم لم يحققوا نصرا كبيرا بمحاولتهم قمع عمل لوثر في المانيا بواسطة الاضطهاد، عقدوا العزم على محاربة الاصلاح باسلحته. فأرادوا مناظرة مع زوينجلي، وبعدما رتبوا كل شيء أرادوا أن يستوثقوا من الانتصار بان يختاروا هم ليس فقط مكان المناظرة بل ايضا القضاء الذين سيحكمون فيها بين المتبارين. فلو استطاعوا أن يوقعوا زوينجلي في قبضة أيديهم فسيحرصون على ألا يفلت منهم. ومتى أبكم الزعيم فستسحق الحركة سريعا. وقد حرصوا على اخفاء هذا السر وهذه النوايا.

اتفقوا على اقامة المباراة في بادن، لكنّ زوينجلي لم يكن حاضرا. ذلك ان اعضاء مجلس زيوريخ كانوا يشكون في نوايا البابويين، وكانت المحرقات في المقاطعات البابوية معدة للمعترفين بالانجيل انذارا لهم، فنهوا راعيهم عن تعريض نفسه لهذا الخطر. وكان زوينجلي مستعدا لمقابلة كل من قد ترسلهم روما الى زيوريخ. أما ذهابه الى بادن التي قد سفك فيها دم شهداء الحق منذ عهد قريب فكان ذهابا لملاقاة الموت المحقق. وقد اختير كل من أيكولامباديوس وهالرِّ

لتمثيل المصلحين، أما الدكتور إك المشهور يسانده جماعة الدكاترة العلماء فكان بطل روما.

ومع أن زوينجلي لم يكن حاضرا ذلك المؤتمر فقد كان المؤتمرون يحسون بحضوره. وقدا ختار البابويون جميع امناء السر، وحرم على الآخرين اخذ مذكرات تحت طائلة الموت. ولكن على رغم كل هذا فقد كان يصل الى زوينجلي بيان دقيق في كل يوم عن كل ما قيل في بادن. ذلك أن طالبا كان حاضرا تلك المناظرة كان في كل مساء يكتب بيانا عن كل الحجج التي قيلت في ذلك اليوم، كما أخذ طالبان آخران على نفسيهما أمر تسليم هذه الاوراق مع الخطاب الذي كان يرسله ايكولامباديوس يوميا الى زوينجلي في زيوريخ. وكان المصلح يرسل الرد مقدما مشورته ومقترحاته. وكانت خطاباته تكتب ليلا وكان الطالبان يعودان بها الى بادن في الصباح التالي. ولكي يتملصا من الحارس اليقظ الواقف على باب المدينة كان هذان الرسولان يحضران له بعض الدجاج فكان يسمح بدخولهما بلا عائق.

وهكذا دخل زوينجلي المعركة ضد خصومه المحتالين. وقال عنه مايكونيوس : « انه تعب أكثر بتأملاته وتفكيره خلال ليالي الارق وبنصائحه التي كان يبعث بها الى بادن أكثر مما لو كان قد ذهب بنفسه للاشتراك في ذلك الجدال وهو محاط بالاعداء » (١٣٥).

أما البابويون فاذ تحمسوا في انتظار الانتصار الذي كانوا يحلمون به فقد أتوا الى بادن متسربلين بابهى الحلل، وكانت الجواهر تلمع في أيديهم وعلى صدورهم. وكانوا ينفقون المال ببذخ، وحفلت موائدهم بأشهى الاطعمة وأجود أنواع الخمور. وقد خفف الانشراحُ والمرحُ عبءَ واجباتهم الكهنوتية. أما المصلحون فكانوا يختلفون عنهم اختلافا ملحوظا، اذ كان الناس ينظرون اليهم كما لو كانوا أحسن قليلا من المتسولين الذين جعلهم اقتصادهم في الاكل يجلسون الى المائدة وقتا قصيرا. واذ كان صاحب البيت الذي يسكنه ايكولامباديوس يراقبه

بعض الوقت في غرفته كان يجده دائما مشغولا إما في الدرس أو الصلاة. أدهشه ذلك فقال لمن حوله : « ان هذا الهرطوقي على الاقل تقي جدا ».

وفي المؤتمر اعتلى إك بكل غطرسة منصة مزينة بزينة فاخرة، بينما أيكولامباديوس المتواضع الذي كان يرتدي ثيابا زرية حقيرة أرغم بكل احتقار على الجلوس فوق مقعد خشبي حقير (١٣٦). ولم يخذل إك صوتهُ العالي ولا ثقته بنفسه التي لا حد لها. وزادت غيرته وحماسته من أمله في الحصول على الذهب والشهرة لان المدافع عن العقيدة والايمان كان سيكافأ بأجر كبير. فلما فشلت حجته المعقولة لجأ الى الشتائم والاقسام.

أما أيكولامباديوس الذي كان محتشما غير واثق بنفسه انكمش أمام تلك المبارزة. ولكنه دخلها بناء على هذا الاعتراف المقدس : « أنا لا أعترف باي مقياس آخر للحكم غير كلمة الله » (١٣٧). ومع رقته ولطفه في تصرفاته فقد برهن على مقدرته وعدم خوفه أو تراجعه. ففي حين أن البابويين استندوا الى سلطة عادات الكنيسة كما هي عادتهم فان المصلح تمسك بكل ثبات بالكتب المقدسة. وقد قال : « ان العُرف لا قوة له هنا في بلادنا سويسرا ما لم يكن مطابقا للدستور، أما الآن ففيما يختص بالعقيدة فان دستورنا هو الكتاب المقدس » (١٣٨).

لم يكن التباين بين المتبارين عديم الاثر فان المحاجة الصريحة الهادئة التي قدمها المصلح بكل رقة ووداعة كان لها تأثير على تلك العقول التي تحولت في اشمئزاز عن ادعاءات إك المتفاخرة القاصفة.

دامت المناظرة ثمانية عشر يوما وفي نهايتها كان البابويون بكل ثقة يدَّعون النصرة لانفسهم. وقد انحاز معظم المبعوثين الى جانب روما. فاعلن المجلس هزيمة المصلحين كما صرح انهم، ومعهم زوينجلي قائدهم، قد بتروا من الكنيسة. لكن ثمار المؤتمر اعلنت الى جانب من كانت الميزة، اذ نتج من

تلك المباراة قوة دافعة محركة للدعوة البروتستانتية. ولم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى اعلنت المدينتان الكبيرتان برن وبازل انضمامهما الى الاصلاح .